القسم الثالث

عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية

obeikandl.com

obeikandl.com

عناصر المدنية في الديانة الإسلامية[1]

- ١ -

المدنية كلمة مشتقة من «مدن المدائن» أى بناها ومصرها، و«تمدن» أى تخلق بأخلاق أهل المدن وخرج من حالة البداوة.

ولكن للمدنية فى عرف العلماء الاجتماعيين معنى أوسع مما مر، فهى تعنى عندهم الحالة الراقية التى توجد عليها الأمم تحت تأثير العلوم والفنون والصنائع، وبهذا فقد اكتسبت المدنية معنى أرفع من معناها اللغوى، إذ اعتبرت مثلاً أعلى للحياة البشرية تتدرج إليه الأمم تحت تأثير رقيها العلمى والعقلى والنفسى والاجتماعى.

وجاء الفلاسفة فقرروا أن الإنسان مدنى بطبعه، أى إنه مفطور على الارتقاء، وعلى بلوغ غايات بعيدة من السمو العلمى والأدبى والصناعى، وهم بهذا القول ما فعلوا شيئاً غير حكاية الواقع المحسوس، فإن الإنسان خلق مجردًا من جميع ما يلزمه من ضروريات العيش، وفروع العلم، وضروب الفنون والوسائل، ولم يصل بعد إلى غاية مداه! بلغ كل هذا بدوافع ذاتية، وحوافز نفسانية، وقوى مودعة فيه، لاتنى تدفعه إلى الاستزادة مما هو فيه حتى قدَّر بعض الحكماء إنه سيصل إلى مستوى من الترقى لا يجول بخيال إنسان.

لسنا بصدد الكلام عن قابليات الإنسان ومواهبه النفسية، ولكنا بسبيل بيان ما فى الدين الإسلامى من عناصر المدنية، تبرئة له من التهمة التى يشيعها

(١) مجلة الأزهر ـ السنة الحادية والعشرون سنة ١٣٦٩ هـ، ص ٤٨٧

الماديون من أن الأديان عدوة طبيعية للحضارة الإنسانية، ما أخذ بها قوم إلا أصبحوا أعداء لكل ارتقاء مادى، وهبطوا إلى حضيض الشعوب البدائية.

للمدنية ككل الشؤون الاجتماعية عناصر يتألف منه كيانها، تؤثر فى الجماعات البشرية فتؤديها إلى شكل من الوجود يتناسب والبيئة المحيطة بها. وللديانات تعاليم خاصة بها، تارة يتفق بعضها وتلك العناصر فترتقى الأمم الآخذة بها، وتصل إلى مدى بعيد من التحضر؛ وتارة لا يتفق بعضها الآخر وتلك العناصر، فتتدهور عن مستواها الأول، ولا تزال تمعن فى التدهور حتى تصل إلى الحضيض، فتفنى فى جثمان أمم أخرى.

وبعد، فقد جاء الإسلام إلى العرب وهم لم يصلوا بعد إلى درجة أمة، وذلك بسبب قحولة بلادهم، وحرمان أرضهم من الأنهار، وما درجوا عليه وألفوه من الحياة القبيلية آمادًا طويلة، فوقفوا بسبب تلك الحالة عن الترقى الأدبى والمادى أجيالاً طويلة: وما وصل إلى شىء من ذلك من قبائلهم لم يلبث إلا قليلاً حتى تلاشى، وعاد إلى مثل ما كانوا عليه من البداوة والجاهلية حتى ظهر الإسلام، وما إن دخلوا فيه، وجروا على تعاليمه، حتى تطوروا إلى درجة أمة موثقة الأواصر، موحَّدة المبادىء؛ ولم يمض عليهم غير جيلين حتى رأيناهم قد أصبحوا للبشرية قادةً فى العلم والفلسفة والصناعة؛ وامتد ملكهم إلى نحو ربع الكرة الأرضية، وهو ملك لم ينبغ لأمة قبلهم ولا بعدهم إلى يومنا هذا، حكموه بعدل وإنصاف يضرب بهما المثل إلى عهدنا الراهن، فكيف يتفق للعرب أن يطفروا إلى هذه المنزلة من التمدن العالى، إن لم يكن فى الدين الذى دخلوا فيه، وهو الإسلام عناصر لتلك الحالة الرفيعة التى تأدوا إليها؟

هذا أمر لا معدى عنه، فما هى هذه العناصر؟

(أولها) إحكام أواصر الاجتماع، وتوثيق عرى الوحدة، إلى الحد الذى تتلاشى فيه الفوارق الشخصية، فيصبح معه المجتمع كالفرد الواحد تحركه إرادة

عامة، وتدبره روح واحدة، وتدفعه إلى غاية مشتركة هى السعادة الكلية التى يحظى بالمتاع بها، والعيش فى كنفها، جميع الأفراد على حد سواء، على مثال أعضاء الجسم الواحد يستمتع كل عضو بنصيبه من سلامته دون أن ينقص منها شىء؛ وقد وصل المسلمون الأولون إلى هذه الدرجة الممتازة من الاجتماع بفضل المبادىء الإسلامية، وبتأثير الروح المحمدية، فكان أثرهما فى أمة لا عهد لها باجتماع من أغرب الظواهر العمرانية، وأدعاها إلى الدهش والحيرة. أصبح المجتمع الإسلامى جسداً واحداً تحركه روح واحدة على وجه لم يعهد له مثيل فى مجتمع آخر؛ حتى روى أن صحابياً منهم حمل قدحاً من الماء ليروى صدى بعض الجرحى فى موقعة، وكان منهم كثيرون بجواره يجودون بأرواحهم، فلما اقترب منه أشار إليه أن يقدم القدح للذى يليه، فلما قدمه إليه أشار له هذا ليعطيها لواحد آخر، فلما انتهى إليه آثر على نفسه جريحاً آخر بالقرب منه، وهكذا صار حامل القدح يتردد به بين الجرحى، وكل منهم يؤثر على نفسه غيره حتى ماتوا جميعاً عطاشاً ولم يصب واحد منهم قطرة. وقد وصف النبى ﷺ حالة أصحابه من الناحية الاجتماعية فقال: «مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى» وقال: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً»، وقال: «ليس منا من بات شبعان وجاره جائع» وقال ابن عباس: «لقد أوصانا رسول ﷺ بالجار حتى خشينا أنه سيورثه».

هذا التماسك الاجتماعى من أوليات عناصر المدنية، لأن الأفراد إذا تكاتفوا على حفظ كيان الاجتماع، ووثقوا بأن وجوده غير مهدد بالتفكك، لم يحصروا همهم كله فى وجودهم الشخصى وضرورياته من مأكل وملبس، بل يحل محله كيانهم العام، ويشغلهم ما هو بحاجة إليه من استصلاح بيئته، وتوفير مقوماتها، ومن ترقية جماعته وتمهيد سبل حياتها، وتنمية عددها، واكتشاف وسائل تقويتها، فتشتغل على هذا الوجه عقول أذكيائها، وأولى العلم منها بالأمور الفنية، والاكتشافات الصناعية، والتطوع لأجل الأغراض العمومية. وقد

تشتد هذه العاطفة الاجتماعية حتى تصل إلى الاستهانة بالحياة الشخصية، فى سبيل كشف جغرافى، أو تركيب كيمائى، أو تحقيق طبى، ولو أردنا أن نسرد أسماء من لقوا حتوفهم جرياً وراء هذه المقاصد العامة لا ضطررنا إلى الإطالة.

والحياة القبيلية لا تتوافر فيها البواعث النفسية الدافعة للترقى الأدبى المادى، لأنها لقلة عدد أفرادها، وعدم طمأنينتها على وجودها، بسبب الإغارات المتوالية عليها من جيرانها، تطغى لديها عاطفة الدفاع عن النفس والأهل والولد على كل عاطفة ذات آثار عامة، فلا يشتغل بال رجالها بغير التسلح والوقوف موقف المتربص لكل مفاجأة عدوانية تقع فى ليل أو نهار؛ وجماعةٌ هذه حالتها من توقع المباغتات، وتخوف الغارات، لا يدور بخلد آحادها غير هَمّ واحد، وهو الدفاع عن النفس، فلهذا السبب لا تصادف فى القبائل واحدة تخطت دور الحياة البدائية ولو مكثت على حالتها ألف سنة.

وما حمى المسلمين من شر التفرق بعد وفاة النبى ﷺ غير ما عنى به الإسلام من توثيق أواصر الاجتماع، وإحكام عرى الوحدة العامة. وقد جرت العادة وخاصة فى الجماعات القريبة العهد بالوجود، أنها عقب موت موجدها تتداعى إلى الانحلال، انصياعاً لتسويلات أركان حربه من القواد الكبار، فتقع بينهم الشحناء، وتشب نيران الحروب آمادًا طويلة لا تجنى الشعوب والأفراد من ورائها غير القلاقل والفتن؛ فتتلاشى طيباتها، وينتشر فيها البؤس واليأس، ثم تنتهى إلى ما قدر لها من مغبة غير محمودة. كما حدث بعد وفاة الإسكندر المقدونى، فقد اتفق له فتح ممالك برمتها عقب حروب موفقة، فلما وافاه أجله اقتسم قواده ملكه بينهم والسيوف مصلتة فى أيديهم، ووقعت الشعوب بسبب ذلك فى فتن كقطع الليل المظلم، ثم انتهى الأمر بتلاشى ذلك الملك العظيم.

ولكن المسلمين بعد وفاة النبى ﷺ ولوا عليهم واحدًا منهم، ولم يؤد ذلك فى أمة كانت بالأمس مؤلفة من قبائل شتى إلى انقسام يفضى إلى فتنة، غير

جماعات ارتدت عن الإسلام لم تلبث أن عادت إلى حظيرته كما كانت. ولما توفى خليفته طلب المسلمون إليه أن يختار لخلافته أولاهم بها، فكان ما أرادوا وسمعوا له وأطاعوا، وفتحوا سورية ومصر وبلاد الفرس على عهده. وتوالى الخلفاء وتوالت الفتوح حتى أصبح ملك المسلمين تساوى مساحته ربع الكرة الأرضية، فى مدى نحو قرن واحد. وفى أثناء ذلك نشطت العقول لإيتاء ثمراتها، وتحركت الهمم للتبريز فى ميدانها؛ ولم يمض غير قرن آخر حتى بلغ المسلمون من المدنية إلى المستوى الرفيع الذى بيناه فى مقالنا السابق. وفيما يلى من المقالات نأتى على بقية عناصر المدنية ومكانتها من الأصول الإسلامية، وآثارها على المسلمين حتى بلغوا بها الأوج الذى أدهش العالم تحت هداية القرآن والتربية المحمدية.

عنَاصِر المَدنيّة فى الدّيانة الإِسلامِيّة(١)

ـ ٢ ـ

الرابطة المادية والرابطة الأدبية

قلنا فى العدد الذى سلف: إن أول عناصر المدنية إحكام أواصر الاجتماع فى الجماعة. واليوم نقول: إن كل اجتماع لا بد له من رابطتين، إحداهما ذات أغراض مادية، والأخرى ذات غايات أدبية: فالرابطة الأولى تقتضيها الحاجات الجسدية، إذ لابد للمجتمعين أن يكون لهم محاولات لتحصيل ما يوفى بضرورياتهم الجثمانية، وهذه المحاولات لصعوبتها تستدعى التضافر على إيجادها، ولا تغنى فيها الجهود الفردية، فهى رابطة حيوية قوية؛ إذ لاتقوم الحياة الجُمَّاعية إلا بها، وهى ضرورية تعنى بها الجماعة عنايتها بحياتها، وتبيع فى سبيل صيانتها وجودها الدنيوى رخيصاً، وهى تتولد تولدا آلياً فى نفسية الجماعات دون أن تحتاج لدعوة.

والرابطة الأدبية هى من ضروريات الحياة البشرية أيضاً، ولم تصادف جماعة مجردة منها فى مدى الأدوار التاريخية كلها، وهى تتألف من أصول ومبادىء يوحى إليها بها محصولها العلمى مناسبةً لمداركها العقلية ومواهبها النفسية؛ فهى تحكم على الوجود وقواه وأحداثه وانقلاباته، وعلى الإنسان وحياته وتطوراته ومُثُله العليا ومصيره، تحت ضوء ما ورثته عن أسلافها من دين، وما طرأ عليها من عادات وتقاليد.

(١) مجلة الأزهر ـ السنة الحادية والعشرون سنة ١٣٦٩، هـ ص٥٧٧

والرابطة المادية كما تتولد آليا، تتطور الأدبية آليا كذلك، دون أن تحدث في الجماعة أي اضطراب، لأن المحاولات المادية من شأنها أن تتشعب تحت ضغط الحوائل والحاجات، فتقبل الجماعات تطوراتها كوسائل إنقاذ من العنت والرهق؛ وعلى خلاف ذلك الرابطة الأدبية، فإنها لتعلقها بالعقائد الدينية، والعادات القومية، والتقاليد الاجتماعية، تستعصى على التطور، وتتألب على دفعه. فإن دفع العلم والتهذيب العقلى فريقا إلى قبوله، أدى ذلك إلى انقسام الجماعة شطرين فى الميول والمُثُل العليا؛ وقد يتفاقم أمره فيؤدى إلى الثورات المسلحة، فيقتل بعض الجماعة بعضاً غير آبهين بما يصيب أمتهم من الوهن، وبما يعرّض وجودها للخطر.

وقد تكون مظاهر هذه الثورات اجتماعية باحتة، ولكنها ترجع بالتحليل إلى عوامل أدبية، كشعور الطبقة العاملة بحيف واقع عليها من ناحية الطبقة القابضة على زمام الثروة العمومية، وعدم معاملتها بروح العدالة التى تقتضيها الأخوة القومية. فالعوامل الأدبية فى الجماعات هى الأسس التى يقوم عليها بناء المجتمع، فإذا لم تكن مرنة مسايرة لحركات التطور الشعورى والأدبى للنفوس البشرية، فلا يعقل أن يستقر نظام أو تزدهر مدنية.

ومن يتأمل فى كثير من أحوال الجماعات الأوروبية التى بلغت مدى بعيداً فى المدنية، يأخذه العجب مما آلت إليه من اضطراب شئونها، واختلاف ميول شعوبها؛ حتى لم يوفق بعضها لإقامة حكومة تثبت أمام هذه الأعاصير من القلاقل بضعة أشهر. والسبب فى ذلك تحول طرأ على مبادئها الأدبية تحت تأثير خطباء من ذوى اللسن والخلابة الكلامية، حشوا عقولهم، إن حقًا وإن باطلاً، بأن العدل يقتضى أن يكون نصيبهم من ربح الأعمال التى يقومون بها، يكفيهم ويكفى من يعولونهم الحاجة. وما لم يعطوا أجورهم على هذا الوجه، فلا يفتأون يعتصبون ويضطربون، بل يثورون حتى تجاب مطالبهم. فانظر كيف أثر هذا التحول فى المبدأ على الجماعات، حتى جعلها فى أمر مريج لا مخلص منه إلا حدوث إصلاح عام للمبدأ نفسه، تتقى به هذه الزعازع. وكيف يمكن

أن يتم إصلاح تستقر الأمور عليه على طريقة الارتجال، وهو إذا أرضى فريقاً أسخط فريقاً آخر لا يقل عن الأول إثارة للقلاقل والارتباكات؟ فانظر إلى أى حد يضطرب نظام الجماعات تحت تأثير المبادىء والأصول؟ ثم انظر إلى أى حال من الدقة والاتزان يحب أن تكون تلك المبادىء والأصول، لتعيش فى ظلالها الأمة أجيالاً متوالية قرونًا كثيرة، لتصل إلى مدنية تستفيد منها البشرية انتقالات مادية وأدبية؟.

فلنرجع الآن بعد بسط هذه المقدمة إلى موضوعنا الأصلى، وهو: «عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية» فنقول: العنصر الثانى بعد توثيق أواصر الاجتماع هو:

فرض «رابطة أدبية» على الجماعة تضمن حقوق الأفراد، وتعين واجباتهم، وتحدد دوائر نشاطهم، وتكون من المرونة وقبول التطور بحيث لاتصطدم فى أدوار وجودهم، بما يتأدون إليه من ترقيات مادية وأدبية، بل تسايرهم فى تلك الأدوار، وتماشيهم فى طريقهم إلى المُثُل العليا من جميع محاولاتهم، بما يناسب جميع طبقاتها، ويوائم حوافز نفسياتها، فتعيش وهى مركبة من طوائف شتّى فى نطاق هذه الرابطة، كأعضاء الكائن الحى، تتكافل جميعها على إبلاغه الغاية القصوى مما قُدِّر له من ارتقاء وبقاء.

لا يعرف فى تاريخ العالم الإنسانى بأن رابطة اجتماعية قامت على هذا النحو غير الرابطة الإسلامية، فقد جاءت فى كل هذه الشئون البشرية بالنهايات التى ليس وراءها مرمى، تاركة فهم مكانتها من السمو للأجيال المقبلة: «سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق». ولذلك أوصلت الأمة التى تولتها إلى أرفع المكانات الاجتماعية، دون أن يحتاج أهلها إلى تعديل عوج في أصولها، أو تبديل نص من نصوصها. خلافًا لجميع الأمم التى وصلت إلى غايات بعيدة فى مدنيتها، فإن روابطها بدأت ساذجة جائرة، ليس للضعفاء فيها حق يحترم، ولا للمساواة فيها مبدأ يلتزم، بل كان السلطان كله للقوة والغلب، فكانت فى كل مرحلة من مراحل وجودها تجد نفسها فى معمعان

ثورة بين الأقوياء والضعفاء، تنتهى عادة بخيال من حقوق ينالها هؤلاء بعد جهاد عنيف، ولا يزالون ينشدون هذه المساواة، ولم ينالوها كاملةً إلى يومنا هذا.

ألا تعجب أن أكبر العقول البشرية عجزت عن قبول مبدأ المساواة فى الحقوق الوطنية، فقرر أفلاطون شيخ الفلسفة ، وتلميذه أرسطو أميرها، أن العمال وأرباب الصنائع يحب أن يكونوا مجردين من الحقوق الوطنية، أما السود من العبيد ومن على شاكلتهم، فلا يجوز أن يعتقد أن لهم أرواحًا إنسانية خالدة كأرواح البيض، فهم بعد موتهم يستحيلون إلى تراب كما تستحيل إليه أجساد الحيوانات العجم؟

ولما خلفت هذه المدنية اليونانية الرومانية، جرت على شاكلتها فى معاملة سواد الأمم، فاعتبرتهم مسخرين للكبراء وأصحاب الثروات، ومضت فى ذلك قُدُما حتى ضج العامة من فداحة ما عوملوا به من الامتهان والظلم، وفضلوا أن يهيموا على وجوههم فى القفار على أن يصبروا على إذلال لا تطيقه الطبيعة البشرية. فاضطر الخاصة أن يرضخوا لهم ببعض مطالبهم، فعادوا مغلوبين على أمرهم، ينتهزون كل فرصة للشغب والخروج عن الطاعة، وما زالوا على ما كانوا عليه من سوء الحال حتى تألبت القبائل الهامجة المجاورة للإمبراطورية الإمبراطورية الرومانية فى إيطاليا على إبادتها فبادت فى سنة (٣٩٥) م وتلتها فى الزوال الأمبراطورية الرومانية الغربية حين فتح الأتراك القسطنطينية عاصمتها فى سنة (١٤٥٣) م بعد أن كانوا جردوها من جميع ممتلكاتها الأوروبية.

أما الرابطة الإسلامية فقد خلصت من جميع العلل الاجتماعية، فلم تنطو على أصل يناقض العقل أو يدابر العدل، أو يؤدى إلى اصطدام الطبقات والأجناس فى دور من أدوار الاجتماع، أو يقف حائلاً بين الجماعة والترقى فى مرحلة من مراحل حياتها الطويلة، أو يمكن تأويله لمصلحة فريق دون فريق، وهذا الأمر الجلل من الآيات الخالدة، يدل على أنه وحى من مدبر الوجود والكائنات، لا أنه ثمرة تفكير فلسفى، أو تدبير علمى؛ فقد سبق زمان وحيه بما لا يقدر من الأجيال؛ وجاوز حدود الطاقة العلمية والفلسفية لعهد تشريعه بما لا يتخيله إنسان.

ألا تعجب أنه بينا كانت أرقى فلسفة فى العالم، تقرر أن الصناع والعمال لايستأهلون أن يعترف لهم بالحقوق الوطنية، وأن الأرقاء مثلهم كمثل الحيوانات العجْم لا أرواح لهم تبقى بعد موتهم، كان الإسلام يسوى بين جميع الطبقات فى الحقوق الوطنية، ومنهم العبيد السود، لقول النبى ﷺ: «لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على أسود، إلا بتقوى الله وعمل صالح»! وجرى العمل على ذلك من ذاك العهد، فعين رسول الله بلالاً، وكان عبداً حبشياً، والياً على المدنية وفيها أبو بكر وعمر، وجمهور كبير من كبراء الصحابة، وولى غيره قائداً لجيش كان من جنوده الصديق والفاروق وغيرهما من أجلاء المسلمين! هذا عجيب حقًّا، وهذه المساواة فى الحقوق، كانت إحدى الأسباب التى صانت وحدة المسلمين من التفكك، وحمتهم من الاضطرابات الثورية، فى مدى قرون متوالية. فهى بهذا الاعتبار، كما كانت من أوثق حوافظ الترابط الاجتماعى، كانت كذلك من أقوى عناصر المدنية، ومن أشدها شحذاً للهمم فى الذهاب بها إلى أقصى حد يمكن أن تصل إليه: لأن المدنية تستمد إبداعها المادى من الصناعات اليدوية، فإذا كان رجال هذه الصناعات يجدون أنفسهم محرومين من الحقوق الوطنية، فلا يجدون من البواعث على الإتقان والابتكار ما يجده المتمتعون بجميع الحقوق الاجتماعية؛ لذلك لم يكد يخلف المسلمون الأولون من سبقهم من الأمم فى الخلافة العالمية؛ حتى نهضت الصناعات اليدوية نهضة فجائية بزوا بها جميع الأمم التى تقدمتهم فى الوجود، وصارت بلادهم مثابة لطلاب العلم والحكمة والصنائع، يقتبسون منها ما يسدون به حاجتهم الاجتماعية. واستمر الحال على هذا المنوال مئات من السنين. فإذا كانت الشعوب الإسلامية قد تدهورت إلى ما هى عليه الآن من الناحية الإبداعية والفنية، فإنما كان ذلك لأسباب انحراف المسلمين عن الصراط السوى الذى قام عليه أسلافهم؛ أما وقد أدركوا ذلك الآن، وبدأوا يستقيمون على الطريق السوى الذى كان يسلكه أوائلهم فى الدين والدنيا، فسيصلون إن شاء الله إلى مثل ما كانوا عليه من السبق إلى كل غاية كريمة.

عنَاصِر المدِنيّة فى الدّيانة الإِسلاميّة[1]

- ٣ -

بينا فى مقالنا السابق، ما للرابطة الأدبية من تأثير على حياة الاجتماع، وانتظام وجوده، واطراد ترقيه، فإذا تأثرت بأقل عارض اضطرب له جثمان المجتمع، وتزلزلت أركانه، وآذنت بالتصدع والانهيار، إذا لم يبادر حفظة تلك الرابطة إلى إزالة ذلك العارض. وما الثورات التى يشب أوارها فى المجتمعات، فتندلع ألسنته فى جميع نواحيها، وتأتى على الأخضر واليابس منها، إلا نتيجة كما قلنا، لتأثر تلك الرابطة. وهى تتألف من ركنين عظيمين: دين الأمة وعاداتها المألوفة، وتقاليدها الموروثة.

ولما كان من المحال أن تقيم الأمم على حالة واحدة من الحياة والعادات والتقاليد، ما دام ناموس الترقى عاملا رئيسيا فى حياة الأمم، فلا مندوحة من طروء تأثرات متوالية من ناحيته عليها، فلا تنقطع مادة الثورات والانقلابات الاجتماعية فى أدوار متقاربة أو متباعدة من حياتها.

نعم، قد يظهر أن ناموس الترقى عديم التأثير فى بعض الجماعات البدائية، فإن منها من مضى عليها عشرات من القرون، وهى ملازمة لحالة واحدة لا تريم عنها، ولكن لذلك أسباباً طبيعية، وهى أنها تقيم بعيدة عن العمران، وتعيش فى بيئات مجدبة لا تحصل فيها على مقومات حياتها إلا كدًا، فلا تجد أى حافز يدفعها، لأن تتقدم خطوة واحدة فى مجال الحياة، فإن طرأت انقلابات اقتضت

---

(١) مجلة الأزهر ـ السنة الحادية والعشرون سنة ١٣٦٩ هـ، ص٨٦٥

أن تقرب منها جماعة أخرى أرقى منها، وحدث اتصال بينهما، كان ذلك فاتحة انتقال لها من حال إلى حال أخرى أرفع منها، بما تقتبسه من وسائل جارتها، وما تستفيده من تجاربها، ووجد ناموس الترقى مجالا له فى بعثها من رقادها. على أنه قد شوهد أن من الجماعات من جمدت على ما هى عليه، فأصبحت تستعصى على الترقى ولا تقبله مهما كان جذابا، كهنود أمريكا الشمالية والجنوبية فقد احتلتهما الدول الأوروبية منذ قرون، ففضل أهلها الأولون البعد عن المتمدنين والعيش على أسلوبهم متوحشين، على أن يحسنوا من شأنهم باقتباس ماهم فى حاجة إليه من نظم الاجتماع، وما هم محرومون منه من وسائل العيش الرغيد، ولا يزالون يعيشون على طريقتهم القديمة بعيدين عن العمران، وتحت تأثير عوامل الانقراض والفناء.

فناموس الارتقاء هو الحافز الأول فى بث روح الثورة فى الجماعات، وهى وإن كانت تسبب كثيرا من المتاعب لها، إلا أنها بما تستتبعه من الانتقالات الأدبية والمادية تعتبر من الضروريات للجماعات. على أنها من العوامل الخطرة، وخاصة إذا كانت تشب فى طائفة تجاور أخرى مزاحمة لها فى البقاء، فإنها بما تحدثه من التفكك فى رُبُطها، وما تستدعيه من الفوضى فى نُظمها، تسهل لجاراتها الإجهاز عليها.

وإذا تأملنا فى بواعث الخلاف الذى يؤدى إلى تناحر الآحاد فى الجماعة الواحدة، تحت تأثير عوامل الارتقاء، وجدناه يرجع إلى أسباب دينية وعادية. فالأديان بما تشاب به من الخرافات، والعادات بما تلتاث به من الجمود، قد تصبح عوامل معطلة للارتقاء، وقد يدرك هذه الحقيقة جمهور من النبهاء ويعملون على التجديد، فيخيل للجامدين أنهم أصبحوا خوارج على تراث الآباء من عادات ومعتقدات، فيحقدون عليهم، ويتداعون إلى الإيقاع بهم، فتشب نار الثورة بين الإخوان، ثم تخمد بغلبة أحد الفريقين، فإن كان الفائزون هم المحافظون، ازدادت الجماعة تقهقراً فى مجال الحياة، وإن دارت الدائرة عليهم استطاع المجددون أن يخطوا بمجتمعهم خطوة أو خطوات فى سبيل الارتقاء.

وهذا التدافع الاجتماعى لا مناص منه حتى فى أدوار الرسالات السماوية. ألم تصادف رسالة الإسلام، وهو الدين العام، من هذا التدافع، مع نصوع أدلتها، وتجلى حكمتها، ووضوح الحاجة إليها، ومن التألب على أبطالها، ما يعتبر من أغرب أطوار الحالات النفسية والعقلية للجماعات البشرية؟

كل هذا مسلَّم به، ولكن تأمل فيما حدث بعد أن تكونت أول جماعة للمسلمين: تألفت هذه الجماعة من شتى القبائل العربية، ولكل منها عقائد موروثة، وتقاليد مألوفة، وعادات امتزجت بنفوسهم، ككل جماعة بدائية لم يهذبها علم، ولم تقوِّمها حكمة، فهى وإن كانت قبلت الدعوة المحمدية، فلم تتجرد من شخصيتها البدوية، فكان المعقول أن تفهم مايلقى إليها من التعاليم على أسلوبها، فتحوِّله إلى ما درجت عليه من سيرتها، وتجمد عليه كما جمدت على موروثاتها قروناً طريلة، وتقع من جديد تحت سلطان ناموس الترقى، فتكابد من جمودها وعوامله، ما تكابده كل جماعة فى مثل عقليتها. ولكن الأمر لم يجر على هذه السنة الطبيعية، بل جاءت سيرتها خارقة للعادة، تعتبر بحق أكبر معجزة وقعت فى هذا العالم. ذلك أن هذه الجماعة أخذت تزداد كل يوم عدداً، وما مضى عليها سنوات معدودة حتى انقلبت إلى أمة فاتحة، ذات نعرة إصلاحية مدوِّية، وما هى إلا ثمانون سنة حتى أصبح لها إمبراطورية لم تنبَغ لأمة قبلها ولا بعدها، وما بلغت سنها مائة وخمسين سنة حتى آلت إليها خلافة الله فى الأرض، فصارت جامعاتها العلمية محجاً لطلاب العلم من جميع بقاع المعمورة، ودورها الصناعية مورداً عدا لطلاب الفنون الجميلة، ومكتباتها الفخمة ملتقى لعشاق المعرفة، وفلاسفتها وأطباؤها وفلكيوها وكيماويوها ومشترعون أئمة لكل راغب فى الغايات القصية.

حدث كل هذا دون أن يحدث شىء من التدافع بين طوائفها، إلا ما لابد منه عند ميلاد كل رأى جديد، أما الثورات المسلحة، وأما الدماء المهراقة، وأما التطاحن الماحق لطيبات الأمم، بسبب التنافس بين أنصار القديم، وأصحاب الجديد، فلم يكن له أثر فى تلك الملايين الكثيرة من المسلمين فى تلك العصور البعيدة. فأين ما ذكرناه من أفاعيل ناموس الترقى فى الجماعات البشرية، وقد

بدأ المسلمون جماعة أمية لا عهد لها بكتاب ولا علم، وما زالت تتطور بسرعة لم تعهد فى تاريخ أمم العالم أجمع، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه من سعة فى الملك، وكثرة فى العدد، حتى صارت أكبر دولة فى الأرض؟ فأين التدافع الاجتماعى الذى يصيب الجماعات عند كل مرحلة من مراحلة التطورات المدنية؟ بل أين الانقلابات المدوِّية التى تصاحب كل حضارة فى أدوار الانتقالات التجديدية؟

عجب لا يشبهه عجب! لقد اتبعت هذه الأمة من سنة التطور ما يكابده الطفل من يوم ولادته حتى يبلغ أشده، دون أن يصيبه مرض يقفه عن النمو، ولم تؤثر عليها الفواعل المحيطة بها، بما يحول بينها وبين بلوغ غاية نموها، على كثرة العوامل العالمية التى كانت تحتوشها من كل جانب، حتى صدق قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

نعم إن الذين يؤمنون بالتأييد الإلهى، والتوجيه السماوى للأمم، هم وحدهم الذين يفهمون فى هذا الموطن معنى هذا التأييد الإلهى؛ أما الذين لا لايؤمنون به، ويرون أن العالم يجرى على السنن الطبيعية، دون أى تأييد فوق الطبيعة، فلا يستطيعون أن يفهموا سر تطور المسلمين من أول مراحل الاجتماع، حتى يصلوا إلى خلافة الله فى الأرض، بعد سنين معدودة لا تكفى لنقل جماعة سواهم درجة واحدة من درجات الرقى، دون أن يمنوا بانقلابات تتزلزل لها الأرض التى تحت أقدامهم، وتضيق لها المنادح التى أمام أعينهم!

نعم إن هذا الأمر المعجز أثر ناطق للتأييد الإلهى المباشر، وللتوجيه السماوى المحكم، ليكون لأهل القرون المتأخرة آية تخر لها العقول ساجدة، وتؤيدها العلوم جاهدة، فتتغلب على الشبه والشكوك التى يثيرها الملحدون حول

(١) النور: ٥٥.

أمثال هذه المعجزات الخالدة. ولكن أنَّى لهم إنكارها، وقد ملأ الخافقين لألاؤها، وعم العالمين سلطانها، وبقيت إلى اليوم آثارها، فلا يتسنى لأحد إنكارها؟

قلنا إن الروابط الأدبية للأمم تتألف من ركنين: أديانها وعوائدها، فإذا كانت الأمة الإسلامية قد مثلت معجزة اجتماعية تعتبر غاية الغايات فى الجلالة، فإنما يرجع ذلك إلى ديانتها دون عوائدها، لأنها أعلنت بإسلامها أنها قاطعت جميع عوائدها، اكتفاء بما تمدها به ديانتها من آدابها، وبذلك ينحصر سر نهضتها بتلك السرعة والثبات المحيرين للعقل، فى ديانتها.

عَناصِر المَدنيّة فى الدّيانة الإِسلاميَّة[1]

- ٤ -

قلنا فى المقال السابق: إن الأمم فى انتقالاتها الاجتماعية، خلال الأدوار المتتابعة التى تتوالى عليها، إنما تتأثر بعاملين قويين: عاداتها الموروثة، ودياناتها؛ وإن كثيراً ماجرها التدافع بين هذين العاملين إلى شر ضروب التناحر بين آحادها. وكثيرًا ما قضى عليها هذا التناحر بالانحلال والتلاشى. إلا الأمة الإسلامية، فقد كان أمرها عجباً؛ بل كان آية خالدة لم يرو لنا تاريخ البشرية ما يشبهها ولا ما يقرب منها؛ فأقرب الأديان إلينا وأشهرها اليهودية والنصرانية، فالأولى كانت خاصة ببنى إسرائيل، دعا إليها موسى ﷺ، فاختلف عليه قومه حتى عوقبوا بالتيه، ولم تقم لهم دولة إلا بعد أدوار شتى. وأما النصرانية فكانت أبطأ خطى من سابقتها حتى أنه لم تتأسس باسمها دولة إلا فى سنة (٣١٣) على عهد الإمبراطور (كونستانتين) الرومانى. أما الإسلام فلم يطل عهد الدعوة إليه أكثر من عشر سنين فى مكة. فلما هاجر منها محمد ﷺ إلى يثرب، كان ذلك بداية للدولة الإسلامية، وهى الديانة العالمية التى أرسل خاتم المرسلين لإعلانها للناس كافة؛ فأرسل رسولها لعياهل الأمم التى كان يمكن الاتصال بها فى ذلك العهد، وهى الدولة الرومانية، والدولة الفارسية، والدولة الحبشية، وغيرها، كتباً يحيطهم علماً بقيامها، ويدعوهم للدخول فيها، وينذرهم بالمَثُلات إن هم تنكبوا عنها. حَدَثٌ جللٌ لم يعهد له

(١) مجلة الأزهر السنة الحادية والعشرون سنة ١٣٦٩ هـ، ص٧٦٩

مثيل فى تاريخ البشر، ولم يقم به محمد ﷺ إلا بوحى من ربه، وكيف كان يقدم على ذلك من تلقاء نفسه، وهو على رأس قلة من الرجال لم يأمنوا على وجودهم بعد، وكانوا إذا قاموا للصلاة تقدمت طائفة وحرستهم أخرى، خشية أن يكبسهم أعداؤهم وهم مجردون من أسلحتهم فلا تقوم لهم بعدها قائمة؟ ولكن الحق جل وعز وعدهم ـ وهم فى تلك القلة يخشون أن يتخطفهم الناس ـ بأنه سيمنحهم خلافته فى الأرض، وأنه سيؤيدهم وسينصرهم على أعدائهم ماداموا موفين بعهدهم الذى عاهدوه عليه، وهو قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾[1].

هذه آية اجتماعية لم يقم لها نظير فى العالم كله، وهى أن تتألف جماعة من طوائف شتى، فتزداد عدداً بسرعة لم تعهد فى أى دور من أدوار البشرية، ثم تنساح فى الأرض بعد نحو خمسة عشرة سنة من تألفها، فتنشر فيه ديناً لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه، وتؤسس ملكًا قوى الدعائم، ركين الأركان، لا تغرب عنه الشمس، يبلغ أهله فى مائة وخمسين سنة من العلم والصنائع والمدنية ما يفوقون به العريقين فيها أنفسهم، ويستمرون حاملين لواءها قروناً متوالية ينشرونها حيث حلت أقدامهم من بقاع الأرض.

نعم هذه كبرى الآيات الإلهية فى تاريخ الإنسانية، يرجع الفضل فيها إلى تعاليم الإسلام وإلى الروح التى يبثها فى القلوب، والأسلوب الذى يسيطر به على العقول والميول. فالأمة الإسلامية التى نالت خلافة الله فى الأرض، وتولت زعامة العالم نحو ألف سنة، وإن يكن أصابها من الفتور ما يصيب الجماعات البشرية، تحت تأثير عوامل شتى، إلا أنها لا تزال تذكر ما ضيها الماجد، وتحنّ إلى استرجاعه؛ ولانشك فى أنها ستستعيده كاملاً غير منقوص

(١) النور: ٥٥.

متى أتم مصلحوها مهمتهم من استخلاص دينها مما شابهُ من البدع، وما ألحق به مما ليس منه فى شىء.

نرجع بعد هذا الاستطراد الذى كان لابد منه، إلى تجلية ماكنا بصدده من بيان خصائص الإسلام فى بناء الأمم، وفى كفايته لتوفيته بحاجاتها من عوامل النهوض، وتداركه لما يساور هذا النهوض من فواعل التثبيط، وعلاجه لما يعتور تدرجها فيه من دواعى الانحراف، دون أن تحتاج الأمة إلى ماجرت به سنن الاجتماع من الخلاف والتناحر الحزبى الذى يجر إليه، ويدفع بمجموعها إلى التفتت الموجب لتقهقرها أو لتلكؤها فى أداء رسالتها آماداً طويلة، هذه خاصة فى الديانه الإسلامية ميزها الحق بها دون الأمم كافة.

ذلك لأن الديانة الإسلامية أوحيت خالية من جميع بواعث الشقاق بين العقل والعقيدة، وبين جميع أطوار الترقى العلمى وأصولها الأولية؛ فمن أية جهة يندس الخلاف لدى ذويها بين المنقول والمعقول، أو يتطرق التناقض فى نظرهم بين أصولها ومقتضيات الظروف؟ هذه ناحية تحتاج لتفصيل فإليك:

قرر الإسلام أن الدين فطرة فطر الله الناس عليها، وأن أساسه الاعتقاد بخالق الكون، وأنه واحد لا شريك له، وأنه تعالى عن الأبصار فلا تراه عين، وعن العقول أيضاً، فلا يدرك كنهه عقل، فكلما خطر ببالك، فهو بخلاف ذلك. وأنه متصف بجميع صفات الكمال، فمهما بالغ المتكلمون، وأطنب المؤمنون، فالله لايحيط بكماله وصف، ولا يبلغ إلى مدى نعته بيان.

فهذه العقيدة لا تقبل أى جدل، ولا تحتمل أى خلاف، ولا تتسع لأية منازعة، وبها أمن أهله كل ما بليت به الجماعات، من شرور الظنون والأوهام، ومن الإغراق فى التلاحى والخصام، فإذا كان كل ماخطر ببالك فالله بخلاف ذلك، فمن العبث إضاعة الوقت فى التحديدات والتقييدات، وفى كل ما يجر إليه محاولة التكلم فى هذا الموضوع من المماحكات.

بهذا الطراز من العقيدة سد الإسلام باب الخلاف سداً محكماً لا يجرؤ على محاولة فتحه إلا متعسف أو متزندق؛ وبسد هذا الباب سلمت جماعة المسلمين

من شر مستطير، هو الانقسام فى أصل العقيدة، وتفرق كلمتها تبعًا لها، ووقوع الاضطرابات المهددة لكيانها.

نعم لم يسلم المجتمع الإسلامى من متطفلين ومتزندقة، فحاول بعضهم فتح هذا الباب على مصراعيه، ولكنها كانت محاولات فاشلة، لمناقضتها لنص العقيدة مناقضة صريحة، فلم تصل واحدة منها إلى مستوى تستطيع معه أن تدفع بجماعة المسلمين إلى الفرقة، فاعتبرت كلها خوارج على الدين، ثم آل أمرها إلى التلاشى والزوال، وبقيت العقيدة الإسلامية إلى يومنا هذا نقية قوية، وجاء العلم فأيدها، فأصبحت الوحيدة التى لا محيد عنها، وتابع المسلمون حركتهم الاجتماعية والمدنية لم تحل بينهم وبين بلوغ غاياتهم البعيدة أية عقبة.

يأتى بعد العقيدة فى الله، العقيدة فى الرسل وفى الأديان، وهى أيضاً كانت مثاراً لمنازعات بين الجماعات لا تقف عند حد، والإسلام فى هذه الناحية يقرر بأن النوع البشرى من يوم وجد كان فى حاجة إلى رسل يهدونه الطريق القويم، ويلقنونه ما به نجاحه فى هذه الحياة، ونجاته فى الدار الآخرة؛ وأمر أتباعه بالإيمان بهم أجمعين، دون أن يفرقوا بين أحد منهم، ودون أن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض.

فإن وُجد فى مجتمعهم طوائف من أديان سابقة لا تؤمن بالإسلام ولابخاتم المرسلين، أمر المسلمون أن لا يتعرضوا لهم بسوء، وأن لا يفرقوا فى المعاملات بينهم وبين المسلمين، وأن يدعوهم أحراراً فى عقائدهم وعباداتهم وبِيَعهم وكنائسهم، وأن يحموهم حمايتهم لأنفسهم، وأن يذودوا عنهم ذيادهم عن إخوانهم فى الدين.

هذا الوضع الحكيم يحسم من أسباب المنازعات والخلافات مالا يحصيه عد بين أبناء المجتمع الواحد، فما دام المسلمون مأمورين أن يؤمنوا بجميع الرسل وأن لا يفرقوا بينهم، وأن لا يتعرضوا لعقائد من تخلف من أهل الملل عن الدخول فى دينهم، وأن لا يفرقوا من المعاملات بينهم وبين أهل ملتهم، فأى فتنة يُعقل أن تنشأ فى مجتمع هذا شأن تحفظاته فى هذه الناحية الحساسة؟ وليس

فى القراء من ليس يدرى أن هذه الأمور كانت ولا تزال مثار قلاقل اجتماعية فى جميع الأمم، حتى فى الجماعات الأوروبية، فإن فى تاريخها حوادث من الاضطهاد أدت إلى مذابح بين البروتستنت والكاثوليك، وبين هؤلاء جميعًا وبين اليهود كانت مثالاً للوحشية البالغة، والجاهلية المتطرفة، ولا ينسى أحد ما حدث فى فرنسا من قتل نحو خمسة وعشرين ألفاً من البروتستنت فى ليلة واحدة، ومن هجرة خمسمائة ألف منهم من فرنسا سنة (١٦٨٥) هرباً من الاضطهاد، حارمين وطنهم من صنائعهم ومعارفهم، وحامليها إلى البلاد التى أووا إليها، فكان فى ذلك خسارة على فرنسا لا تقدر.

وإذا كان هذا فى فرنسا وكانت فى مقدمة الأمم ثقافة وذكاء، فماذا أنت ظان فيما حدث فى سواها من الأمم الأخرى؟ وليس فى قرائنا من يجهل ما كان يحدث لليهود قبل الحرب العالمية الأولى من العسف والاضطهاد والتشريد فى جميع الممالك الأوروبية حتى اضطروا لإنشاء وطن قومى لهم، وضنت جميع الأمم عليهم بقطعة من الأرض ولو فى مجاهل إفريقا، وأخيراً تفضلوا عليهم بها ولكن على حساب المسلمين فى فلسطين.

هذا من ناحية سمو التعاليم الإسلامية، وقطعها لذرائع الاضطرابات الطائفية فى جماعاتها من ناحية الخلافات الدينية. وبقى علينا دراسة هذا الموضوع من الناحية الاجتماعية لتجلية عناصر المدنية فيها.

عناصر المدنية فى الديانة الإسلامية(1)

- ٥ -

بينا فى الجزء الماضى أن عقائد الإسلام الرئيسية تمنع تولد الشقاق بين الجماعات، فلا تشتغل الجماعات بنفسها عن توحيد قواها للوصول إلى غاياتها فى ثقة وطمأنينة لابد منهما لبناء الأصول الراسخة، وإقامة المبانى الشامخة؛ واليوم نسرد رءوس الأصول الاجتماعية فى الإسلام، ونبين أنها مستودع آياته الباهرة، ومعجزاته الخالدة، فنقول:

لكل مجتمع أصول تقوم عليها أركانه، كما لكل مبنى وطائد يقوم عليها بنيانه، وبقدر ما تكون تلك الأصول قوية ومستقرة على قرار مكين، يجيء البناء متيناً راسياً لا يتداعى للسقوط، ولا يحتاج للترميم. وقد جرت السنة الاجتماعية على أن هذه الأصول تكون بدائية فى المجتمعات الحديثة الوجود، ثم تأخذ فى التهذب والارتقاء رويداً رويداً تحت تأثير دوافع قاهرة، وعوامل مؤثرة، تظهر أولاً على صورة مصادمات جدلية، ثم تتطور إلى ثورات دموية؛ وعقب كل انقلاب من هذه الانقلابات ترتقى الروابط الاجتماعية درجة فى تطورها إلى الديموقراطية المثالية، التى تنقطع معها الفوارق الطائفية فى الأمة الواحدة. من هنا لا تفتأ الجماعات تهب فيها الثورات من حين إلى آخر، مدفوعة إليها بعوامل ناموس الارتقاء، لا بعوامل شر كما يتوهم ذلك من لا بصيرة لهم بعلم الاجتماع.

---

(١) مجلة الأزهر- السنة الحادية والعشرون سنة ١٣٦٩ هـ، ص٨٧٢

قلنا: إن الجماعة الإسلامية مضى عليها بعد أن تألفت على حالة ضعيفة ساذجة، ووصلت إلى درجة ممتازة من النظام الاجتماعى، والرقى العلمى والعملى، مما استحقت به خلافة الله فى الأرض ـ قرون كثيرة، لم تشب فيها ثورة واحدة آثارها ما يثير غيرها من طلب المساواة فى الحقوق والواجبات الاجتماعية، وهى الأسباب التى ولدت فى جميع العصور شر الثورات، وأشدها كَلَبًا، حتى كانت سببًا فى حل جماعات، وضياع استقلال أخرى، وجرت وراءها نكبات لا حصر لها لتلك المجتمعات وما جاورها، ولا يزال الناس يعيدون ذكرى الثورات الرومانية والانجليزية والفرنسية والروسية وغيرها مما لا يمكن حصره. وإنما يردد الناس ذكرى هذه الثورات لأنها إنما شبت لتوليد الحقوق الإنسانية الطبيعية، وتسجيل نشوئها فى العالم كأصول أولية لكل نهضة اجتماعية ذات أغراض مدنية أو أدبية.

إذا صح هذا وهو صحيح، بل هو طبيعى محسوس، فلماذا لم تحدث مثل هذه الثورات فى الأمة الإسلامية، فيستدعى نهوضها الاجتماعى والمدنى قروناً كثيرة كما حدث لغيرها؛ بل تألفت ولم يمض على تألفها قرنان حتى أصبحت أعظم إمبراطورية فى الأرض، وأسست مدنية فاقت جميع ما تقدمها، وحفظت للعالم تراثه العلمى وزادت عليه من جهودها مكتشفات جديدة، ومعلومات ثمينة، أتمت كل هذا فى قرنين لم يتخللهما أقل اعتراك على الحقوق الاجتماعية، الأمر الذى احتكر جميع الثورات البشرية، واستوعب تاريخها كله؟

السبب فى هذا هو ما قدمناه من أن الإسلام جاء مشتملاً على جميع حقوق الأفراد بعضهم حيال بعض، وعلى كل ضروب المساواة التى تتطلبها الحياة المدنية، ولا تظهر الحاجة إليها فى الشعوب إلا رويداً رويدًا، ففى كل مرحلة من المراحل الاجتماعية يزداد وعى الجماعة بنفسها، فتطالب الطوائف المحرومة من حقوقها بتلك الحقوق، ويصر المتمتعون بها على حرمانهم منها، فيحاول الضعفاء أخذها غلاباً، فتقع بين الفريقين ثورة قد يتغلب فيها المغتصبون، فتهدأ الثورات أمداً محدوداً، ثم تهب من جديد؛ ولا تزال تتبع هذا الاسلوب إزاء

حصولها على حقوقها الاجتماعية، حتى تحصل عليها كاملةً أو تخيب فى منازعة خصومها فتلحق بالمتخلفين.

أرسل الله خاتم رسله بالإسلام، والأمم فى غيابة من الجهل بحقوقها، يسوقها رعاتها إلى التناحر، فتنقاد لهم انقياد الخراف لرعاتها، فيدفعون بها إلى أى الأغراض شاءوا؛ فأعلن ﷺ الأفراد بحقوقهم وواجباتهم وطالبهم بالاعتداد بها والحرص عليها، وأنهم يحيون حياة طيبة، ويخدمون أنفسهم والإنسانية أجمع ما داموا عاملين بها، ومترسمين خطواتها، فإن انحرفوا عنها انحرفت بهم الأحوال، فإن لم يتيقظوا أدركتهم أدواء الأمم وهلكوا ولا كرامة.

أول تلك الأصول: المساواة بين الناس كافة فى جميع الحقوق الإنسانية لافضل لعربى على أعجمى: ولا لتركى على زنجى ولا لغنى على فقير، ولا لوجيه على صعلوك، فالجميع متساوون فى الحقوق والواجبات، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾(١).

وقال النبى ﷺ: «لا فضل لعربى على أعجمى، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو بعمل صالح، كلكم لآدم وآدم من تراب».

بهذا الأصل الأصيل سقطت فى العالم الإسلامى فتنة اعتبار الفقراء والعامة محرومين، أو كأشباه المحرومين من الحقوق الوطنية، والميزات الاجتماعية، فلكل مسلم وإن كان معدماً وذا ماض بعيد فى الفاقة وخمول الذكر، من الحقوق الوطنية مالأثرى الأثرياء، الممثل لأرفع البيوتات، وأنبل الطبقات.

فكما فتح الإسلام أمامه باب الارتزاق، ولم يضع له حدًّا فى طلب الحلال، مهد له سبيل الخدم الاجتماعية، فلم يوصد فى وجهه باباً يمكن أن يلج منه للوصول إلى أرفع الدرجات فى المجتمع، ولم يضع أمامه من العراقيل ما يصرفه عنه إلى غيره. وقد بدأ رسول الله ﷺ بتنفيذ هذا النظام فولى بلالاً ـ

(١) الحجرات: ١٣.

وكان مملوكاً حبشيًا لواحد من الناس ـ على المدينة، ليدبر أمورها فى غيبته، وكان فيها أبو بكر وعمر وعدد كبير من عظماء الصحابة، وكبار أصحاب البيوتات.

فهذه ديمقراطية لم يرها العالم المتمدن إلى اليوم، ولم ينس الناس مالقى ويلقى السود والهنود وغيرها من سوء معاملة بعض الأمم المتمدنة إلى عهدنا هذا.

وكما رفع الإسلام عن الضعفاء هذا الإصر، أشركهم فى جميع مجالات الحياة مع الكبراء، وجلة الأثرياء. وساوى بين الجميع فى المعاملات، بينما كانت الأمم فى حين إيحاء الإسلام إلى أواخر القرن الثامن عشر أى إلى عهد الثورة الفرنسية فى سنة (١٧٩٨)، لا تزال تضع فروقاً عظيمة بين الأثرياء والفقراء. جاء فى موسوعة لاروس قوله: «فى سنة (١٧٩٨) كان يوجد عدم مساواة شائك فى توزيع المناصب العمومية، وعدم الرقابة عليها، فبذل وزراء لويز السادس عشر جهدهم لإجراء الإصلاحات التى تتطلبها الأمة؛ فلم ينجحوا ضد المقاومة العنيفة لرجال الدين والنبلاء، فرأت الأمة أنه لا يجدى فى هذا الأمر غير ثورة تضع مكان جماعة قائمة على اعتبار الامتيازات، جماعة أخرى يسودها قانون المساواة بين الجميع». أ هـ. وليس بخاف على القراء ما أحدثته الثورة الفرنسية من الانقلابات، وما قررته من الإصلاحات، وكانت سببًا فى إيقاظ شعوب أوروبا جميعا من سباتهم، فلم يلبثوا حتى ثاروا جميعًا ضد حكوماتهم طالبين التأسى بحكومة الفرنسيين، فكان لهم ما أرادوا، فانظر كيف تأخر الأوروبيون عن المسلمين نحو اثنى عشر قرناً فى التمتع بالحرية، وبالأصول المستندة إلى الديموقراطية الصحيحة، التى أساسها المساواة المطلقة بين جميع أفراد الشعب. والله إنه لأمر جلل!

هذا تأويل عدم ثورة المسلمين على قادتهم طوال عهد ارتقائهم، فقد كان ذلك لعدم وجود ما يقتضيه من منع حقوق الضعفاء، وحصر الشؤون العظيمة للطبقات القوية من الأثرياء، وأصحاب العصبيات. وعدم وجود مثل هذه

الثورات فى الاجتماع الإسلامى فى مدى قرون متوالية، هو الذى مكنهم من تحقيق مدنية راقية فى مدى قرنين اثنين. أليس من المعجزات الباهرة أن تتألف أمة لا عهد لها بوحدة، ولا بحكومة، ولا بقانون، ولا بمثل أعلى، فتصل فى قرنين إلى أبعد ماوصل إليه غيرها فى عشرة قرون؟

نعم إن هذا الأمر من المعجزات الباهرة، وأى إعجاز أعظم من إيجاد أمة من العدم، وتزويدها بأصول اجتماعية تضمن قيامها على أكمل نظام، وبمبادئ خلقية تجعل منها أمة مثالية على أرقى حال؟ ومن العجيب أن هذه الأمة مرت بجميع الأدوار المكونة للاجتماع، كما يمر الطفل بجميع أدوار الطفولة حتى يصل إلى سن الرجولة. وعند وصولها إلى دور الرجولة تنقلب فى أدوارها دون أن يصاب وجودها بأذى، إلا مما لا مناص منه من لوازم الحروب والمصاولات، ولكنها لم يتزعزع لها أساس، ولم يَهِ لها ركن، فتحملت جميع عواقب تصرفاتها الحيوية دون أن تصاب فى صميمها بأى عرض.

وقد انتهى بها الأمر فى أدوار الاجتماع إلى أن بلغت هذه المرحلة الأخيرة التى تغلب فيها الأجانب على كثير من أقطارها، ولكنها مع كل هذا شديدة التعلق بدينها، والحنين إليه، عازيةً جميع ما أصابها إلى حيدها عن صراطه، ومدابرتها لمبادئه وأصوله، غير يائسة من العود إليها لاسترداد مجدها الأثيل، وعزها التليد.

obeikandl.com